

332

# اتجاهات تعليم الجامعي في العصر الحديث

الدكتور عبدالوهاب البرلسي

وزير التعليم العالي  
الجمهورية العربية المتحدة

وفي القرن الحادي عشر الميلادي ( عام 1076م ) بدأت في أوروبا أولى جامعتين هما : سالرنو Salerno في جنوب إيطاليا ، التي اشتهرت بمدرستها الطبية ؛ وبوونيا Bologna في شمالها ، ثم تلاهما اشهر ثلاث جامعات انشئت في أوروبا في العصور الوسطى ، وهي جامعات : باريس ، واكسفورد ، وكمبريدج . وعاصرت أوروبا بعد ذلك حقبتين من النهضة الجامعية : الأولى في عصر النهضة في القرن السادس عشر ، والثانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وفي كل تلك الأزمنة ، كانت الجامعات تتميز بما يتميز به عصرها .. اجتماعيا ، وسياسيا ، فكانت الجامعات في القرون الوسطى تنمو في ظل الدين ، وكان رفقاء الدراسة يلتزمون . أولا - بالصحة والاخوة وطريقة الحياة التي ارتضوها لانفسهم . ثم تقلص التأثير الديني بعد ذلك وخامسة مع بدء عصر النهضة اثر اهتمام الافراد والهيئات بالتبرع لتمويل نشاط الجامعات ، واشتراكهم في ادارتها ، والاشرف على سياستها ، اصالح العلم ، والمعرفة . والمجتمع .

وفي السنوات التي تلت عصر النهضة ، ظهر عاملان قويان كان لهما تأثير واضح على نمو الجامعات : العامل الاول هو البحث العلمي الذي بدأ يتبلور كظاهرة

كان الانسان دائما - وما يزال - تواقا الى المعرفة ، وقد سعى الى هذا الهدف .. بكافة الوسائل ، بحثا ، ونقلا ، وسماحا .

ومن قديم الزمن .. كانت معابد الصين ، واكاديميات الاغريق ، ومدارس المصريين القدماء ، ثم المساجد والمكتبات في الاسلام ، ثم الجامعات بشكلها الحديث ، كانت كلها مراكز اشعاع ... للعلم ، والمعرفة .

وفي منتصف القرن الرابع الهجري - القرن العاشر الميلادي - قام الازهر الشريف واضطلع بمهمة الجامعة ، وما زال الى يومنا هذا وبعد الف عام قائما شامخا .. يمثل تطور القديم الى الحديث ، وينشر هام الدنيا والدين ، ويضيف الى المعرفة ، ويخرج اجيالا متعاقبة من العلماء والساسة . وكان الازهر في خدمة المجتمع الاسلامي ، قاطبة ، حج اليه الرافقون في العلم ، من كل حذب وصوب ، يخدم المجتمع بروح الاسلام ، روح العدل والمساواة ، فكانت الدراسة فيه حرة لمن استطاع الاستمرار فيها ... دون رسوم او نفقات ، بل كانت تيسر الاعاشة ايضا في كثير من الاحيان .

مميزة لهذا العصر ، وقد ادى ظهور الرواد الاوائل من الباحثين والمكتشفين في القرن السابع عشر ، وما تلاه ، الى انشاء الجمعيات والروابط العلمية ، وبخاصة في ميدان العلوم الاساسية ، وكان لهذه الجمعيات العلمية دورها الناجح في نمو التعليم الجامعي .

والعامل الثاني هو التحول الصناعي في مطلع القرن التاسع عشر ، حيث وضع للعالم اجمع ان الصناعة هي من اهم اسس تقدم المجتمع ، وان التقدم الصناعي يحتاج الى علماء وفنيين مهرة ، ويحتاج اعداد هائلة ، الى معاهد وكليات متخصصة في مجال ادارة الاعمال ، والاقتصاد .

وقد وضع ان البحث العلمي في عصرنا الحاضر . هو العامل المحرك للانتاج والصناعة ، ولا يزال الانتاج والصناعة هما دعامة نمو المجتمع .

وقد دخل البحث العلمي في هذا العصر آفاقا جديدة ورحبة ، فتحت الابواب لاحتمالات ضخمة في تقدم العلوم والمعرفة .

وكان طبيعيا ان صاحبت هذه القفزة الهائلة في ميادين البحث العلمي ، قفزة مماثلة في التعليم الجامعي والعالي ، الذي انتشر واسعا ( وبخاصة في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، وفي مناطق من العلم لم تكن تعرف التعليم الجامعي من قبل . واغلب تلك المناطق هي التي كانت تزوج تحت نير القهر الاستعماري ، في افريقيا واسيا ، فقد دلت احصاءات الامم المتحدة انه خلال الفترة من عام 1950 الى عام 1960 كان اعلى معدل للزيادة في عدد الطلاب الجامعيين هو في جامعات القارة الافريقية وكان اكبر عدد من الطلاب الجامعيين في العالم اجمع هو في القارة الاسيوية . وهكذا صحت شعوب القارتين لتعوض ما فات ولتمحو آثار التخلف الثقافي الذي اورثه اياها الاستعمار .

ومصر - هذا البلد العريق في الاصل والثقافة والدين - عريق ايضا في التعليم الجامعي . وقد اشرفنا الى اثر الازهر الشريف في الحياة الثقافية ، والفكرية . والسياسية .. قديما ، وحديثا .. والى اصالة العلاقات الانسانية - داخل الجامعة الازهرية بين الاستاذ والطالب اذ كانت علاقة احترام وتبجيل ، ودرس وتوجيه ، وحرية علمية مكفولة ، ورعاية اجتماعية وروحانية .

وحملت منار العلم والمعرفة - بجانب الازهر الشريف - جامعة القاهرة ، منذ اكثر من نصف قرن . فاعدت الرهيل الاول من العلماء والمفكرين الذين قادوا الحركة العلمية والفكرية ، في القرن الحالي ، وقادوا التعليم الجامعي - في عدد من الجامعات انشئت بعد ذلك في القاهرة والاسكندرية واسيوط - فكانوا امناه في حمل الرسالة ، وكانوا روادا مخلصين للعلم ، وللشباب ، وللمجتمع .

وتطورت جامعاتنا ، وتطور التعليم الجامعي في بلادنا . وارتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع ، يمد الافراد العلميين ، وينمي البحث العلمي ، وينشر العلم والمعرفة بين الالاف .. من خيرة الشباب ، ويتيح الفرصة المتكاثرة لامداد هائلة ، من الطلاب ، والدارسين ، والباحثين .

وفي خلال عشر سنوات من عام 1957 الى عام 1967 - ازداد عدد طلاب الجامعات المصرية الاربعة : القاهرة والاسكندرية وعين شمس واسيوط من 73740 طالب الى 126 610 طالب اي بزيادة قدرها 71 % .

وضوعف الاتفاق على التعليم في هذه الجامعات في نفس هذه الفترة من 7.500.000 مليون جنيه الى 15.917.300 جنيه ، اي بزيادة قدرها 112 % ( جدول رقم 1 ) .

### جدول رقم - 1 -

بيان بتطور الجامعات وكلياتها في الجمهورية العربية المتحدة وتطور اعداد الطلاب ، واعداد الخريجين (\*\*) والانفاق السنوي

البيان	السنة	1957	1962	1967
عدد الجامعات	.....	4	4	4
عدد الكليات الجامعية	.....	33	32	46
عدد الطلاب ( مرحلة البكالوريوس )	.....	73740	112 860	126 610
عدد الخريجين	.....	7880	12 230	19 867
الانفاق السنوي ( بالالف جنيه )	.....	7500	14 266	15 917

(\*) ماعدا جامعة الازهر .

## سمات التعليم الجامعي في العصر الحديث

الآخري التي تيسر البحث والدرس ، على المستوى الذي يكفل حسن إعداد هذه الفئة الهامة من الاساتذة والباحثين .

وإذا كان تخطيط التعليم الجامعي لازما لكل دولة ، فهو الزم للدول النامية التي بدأت منذ عهد قريب سياسة التصنيع : بنية الارتفاع بمستوى المباشرة فيها ، إذ ان على هذه الدول ان تضيق الشقة بينها وبين الدول المتقدمة . ولا يفت و عضد الدول النامية التكلفة الباهظة للاستثمارات اللازمة للتعليم الجامعي . إذ ان عائد تلك الاستثمارات - على الامد الطويل - يستحق هذا الإنفاق .

على ان وضع مثل هذه الخطة في مجال القوى العاملة - بطريقة مفصلة ومحكمة في نفس الوقت - ليس بالامر الهين . فهو يستلزم معرفة دقيقة بما يلزم كافة قطاعات الانتاج والخدمات من فئات القوى البشرية المختلفة ، على مدى معين ، آخذين في الاعتبار . . الوقت اللازم للطلاب الجديد ، حتى يصبح عاملا منتجا في قطاع من القطاعات .

وكثيرا ما نموزنا الاحصاءات الدقيقة وبخاصة في الدول النامية . . مما يشكل عقبة كبيرة في طريق التخطيط السليم .

### تكافؤ الفرص في التعليم الجامعي

والاساس الثاني في تخطيط التعليم الجامعي ، هو تحقيق ديمقراطية هذا المستوى من التعليم ، وذلك بلانحة الفرصة المتكافئة لكل من تؤهلهم قدراتهم الذهنية ، لمواصلته والتفوق فيه فرصة لا تعدها قدرة مادية او طبقية .

ولتحقيق هذه الفرصة المتكافئة يلزم اتباع الوسائل التالية :

1 - وضع نظام عادل لاختيار الطلاب للدراسة الجامعية ، يضمن اختيار افضل العناصر من حيث قدرتهم على مواصلة هذه الدراسة والنجاح فيها ، وقد جربت وسائل عدة لاختيار الطلاب ، من بينها : اختبارات تربوية ونفسية مختلفة ، بهدف تحديد قدرات الطالب وملكانه واستمداه لنوع معين من الدراسة . . الا ان المشاهد في اغلب الاحوال ان انجح السبل لاختيار الطلاب وأكثرها تحقيقا للفرصة المتكافئة هي اقلها تعقيدا . ولعل أبسطها اختيار

لقد ادى التطور الاجتماعي والسياسي الكبير ، والتقدم العلمي الهائل ، الذي شهده العالم في القرن الحالي - الى ارساء اسس جديدة لتطوير التعليم الجامعي والعالي ، حتى يساير روح هذا العصر ومتطلباته .

وإضافة الى ذلك ، فانه رغم اننا نميش في عالم كبير ، الا ان الاتصال بين شعوبه لم يكن في يوم من الأيام ايسر ولا اسرع منه : اليوم . ولا سبيل اذن الى العزلة بين الشعوب ، بل هناك ضرورة للتعاون الوثيق بينها . وتبادل الخبرات في مجال التعليم . وهناك حاجة الى مساعدة القادر والمتقدم منها . للشعوب النامية المنعشة الى العلم والمعرفة . . مساندة علمية ، وانسانية . دون قيود . او تبعية .

وإضافة الى ذلك ، فانه رغم اننا نميش في عالم كبير ، الا ان الاتصال بين شعوبه لم يكن في يوم من الأيام ايسر ولا اسرع منه : اليوم . ولا سبيل اذن الى العزلة بين الشعوب ، بل هناك ضرورة للتعاون الوثيق بينها . وتبادل الخبرات في مجال التعليم . وهناك حاجة الى مساعدة القادر والمتقدم منها . للشعوب النامية المنعشة الى العلم والمعرفة . . مساندة علمية ، وانسانية . دون قيود . او تبعية .

### ضرورة التخطيط للتعليم الجامعي :

تهدف خطة التعليم الى اعداد القوى البشرية . بفئاتها المختلفة ، التي تلزم للتنمية الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع ، ولتنفيذ مشروعات الخدمات المختلفة . وتشمل الخطة ايضا : انشاء المعاهد والجامعات التي تلزم لتحقيق هذه الاهداف ، اي ان خطة التنمية . . الاقتصادية والاجتماعية ، يجب ان يقابلها خطة تعليمية تعد لها ما تحتاج من القوى البشرية .

والخطة التعليمية ليست مقصورة على التعليم الجامعي والعالي ، بل يسبق ذلك ويرتبط به - خطة للتعليم العام ، يكون من بين اهدافها . . اعداد الشباب بالطريقة التي تسمح لمن تمكنه طاقاته الذهنية ، من اتمام مراحل التعليم الجامعي والعالي .

وتحتاج الجامعات لتحقيق هذه الخطة الى عدد مناسب من امضاء هيئة التدريس يلزم لاعدادهم - كما وكيفا - خطة مسبقة ، وامكانيات خاصة ، من حيث : اعداد المعامل والتجهيزات ، والمنشآت الجامعية

الطلاب طبقا لتفوقهم في دراستهم الثانوية ، مع اخذ رغبتهم وميولهم بعين الاعتبار .

2 - رفع القيود المادية التي تحد من تكافؤ الفرص ، واولها . . المصروفات الجامعية الباهظة . فانه مع الاعتراف بان ارتفاع مستوى المعيشة في كثير من الدول قد اتاح فرصا اكبر لطلابها لاتمام دراستهم الجامعية الا ان مجانية التعليم الجامعي التي حققتها دول كثيرة في السنوات الاخيرة كانت هي العامل الحقيقي الذي اعطى الفرصة المتكافئة لكل قادر على مواصلة هذا التعليم .

3 - تدبير المعنويات المادية ، ووسائل الرعاية الاجتماعية المختلفة للمتفوقين من الطلاب الذين تعجزهم احوالهم المادية عن مواصلة التعليم الجامعي ، رغم مجابته ، ومن اهم انواع تلك المعنويات: اتاحة فرص الاقامة والاعاشة في المدن الجامعية للطلاب المفترين ، فلا يزال الاغتراب يشكل عقبة كبيرة في طريق استكمال عدد من الشباب المتفوق تعليمهم الجامعي .

وتشمل المعنوية ايضا القروض الطويلة الاجل التي يسدها الطالب دون فوائد بعد تخرجه من الجامعة وبدء حياته العملية ، كما تشمل الجوائز المالية التي تمنح للمتفوقين من الطلاب وتساعدهم على استمرار تفوقهم ونجاحهم .

ويقدر بعض الخبراء ان هذه المعنويات - باشكلها المختلفة - يجب ان تتوافر لحوالي ثلث عدد الطلاب الدارسين في الجامعة .

4 - ويرتبط بالتعليم الجامعي انواع اخرى من التعليم العالي ، كانت تبيتها محل بحث ودراسة - خلال السنوات الماضية ، في كثير من بلاد العالم - وتقصد بها بعض المعاهد العليا التي يلتحق بها الطلاب بعد المرحلة الثانوية . وفي مقدمتها: المعاهد التكنولوجية ، ومعاهد المعلمين ، ومعاهد التمريض ، وما اليها ، هل تظل هذه المعاهد بعيدة عن التعليم الجامعي ، ونطاقه ، ام تظم الى الجامعات .

ان بقاءها خارج نطاق الجامعات ما هو الا تقليد جرت عليه الامور .

وقد استقر الرأي - في كثير من البلاد - على ان ضم تلك المعاهد الى الجامعات يوحد شكل التعليم العالي ، ويحقق ديمقراطية التعليم ، واتخذت انجلترا

هذا الموقف بضمها معاهد المعلمين الى الجامعة ، بعد الحرب العالمية الثانية ، وعادت الى تأكيد هذا المفهوم عندما درست لجنة روبن مشاكل التعليم العالي في بريطانيا ، وضمت ايضا الى الجامعات مجموعة من المعاهد التكنولوجية وهي ما عرفت بكليات التكنولوجيا المتقدمة ، واصبحت دبلوماتها درجات جامعية .

5 - ويجرنا الحديث عن ديمقراطية التعليم وضرورة اتاحة الفرصة المتكافئة فيه ، الى ان نذكر فئة من العاملين في قطاعات الانتاج والخدمات فاتتهم فرصة التعليم الجامعي والعالي ، لاسباب خارجة عن رادتهم ، وربما كان بينهم من هو اهل لهذا التعليم ، وفي نفس الوقت لا يستطيع ترك عمله للتفرغ للتعليم الجامعي ، وقد واجهت بلاد كثيرة - شرقية وغربية - هذه المشكلة . باسلوب واقعي ، فاتاحت الفرصة لهذه الفئة ، لاستكمال التعليم مع عدم تفرغ الطالب له .

وتدل احصاءات الامم المتحدة على ان عدد هؤلاء الطلاب يبلغ حوالي نصف عدد طلاب التعليم الجامعي في الاتحاد السوفياتي ، وفي انجلترا ، على حد سواء .

6 - ويوصي الخبراء ايضا بعدم تركيز الجامعات والكليات الجامعية في المواسم والمدن الكبرى ، بل يجب العمل على توزيعها جغرافيا على الاقاليم المختلفة ، اذ يتيح ذلك الفرصة لانتشار التعليم الجامعي ، والتغلب على عقبة الاغتراب والاماشة ، بل والازدحام في جامعة العاصمة .

وقد خطت مصر خطوات على هذا الطريق بانشاء جامعة الاسكندرية في عام 1942 ، ثم جامعة اسيوط في عام 1957 وفرعها في المنيا في عام 1966 وكثيبتين للطب في كل من طنطا والمنصورة في عام 1962 نرجو ان تكون كل منهما نواة لجامعة اقليمية جديدة .

### ضرورة التوسع في التعليم الجامعي

اشرنا فيما سبق الى ان ظهور هذا العدد الكبير من الدول المستقلة في الحقبة التي تلت الحرب العالمية الثانية ، وحاجة هذه الدول الى التعليم ، بعد طول حرمان ، قد ادى الى التوسع في التعليم الجامعي والعالي ، الا ان هناك عوامل اخرى هامة ساهمت - ولا تزال - في اتساع نطاق هذا النوع من التعليم .

ومن هذه العوامل النمو السكاني العالمي ، وضغط هذا النمو على التعليم ، واستجابة المسؤولين لحاجة الشعوب وحققا في طلب العلم . وقد صاحب هذا النمو

السكاني - بل وسبقه خلال النصف من القرن الحالي -  
توسع كبير في التعليم الثانوي ، أدى بعدد كبير من  
الشباب الى ابواب الجامعات .

ومن اسباب التوسع ايضا الأخذ بمبدأ تكافؤ  
الفرص الذي أشرنا اليه ، ومجانبة التعليم الثانوي  
في كثير من البلدان ، ثم مجانية التعليم الجامعي في عدد  
كبير منها . وبالإضافة الى ذلك فان تعليم البنات لم  
يكن منتشرًا بهذا الاتساع قبل خمسين عاما ، أما الآن  
فللطالبة فرصة متكافئة كالتالبات تماما ادت بها الى  
التعليم الجامعي بأعداد متزايدة فاقت أعداد الطلاب في  
بعض الدراسات الجامعية .

ولا تقتصر العوامل التي ادت الى التوسع في  
التعليم الجامعي ، على رغبة هذا العدد المتزايد من  
الشباب في اتمام تعليمهم ، بل هناك عوامل أخرى  
مرتبطة بنمو المجتمع نفسه ، ونمو الصناعات فيه ،  
وحاجة كل ذلك الى أنواع من التخصصات الجديدة في  
كافة نواحي العلوم والتكنولوجيا لصالح الإنتاج والتنمية  
وحاجة المجتمع ايضا الى خدمات أكثر حجما وتوسعا  
في ميادين الصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية ،  
وضرورة امداد القوى البشرية اللازمة لمقابلة تلك  
الالتزامات .

كل هذه العوامل تؤلف قوى مؤثرة بشكل فعال  
في نمو التعليم الجامعي ، وتحتم التوسع فيه ، وبخاصة  
في البلاد التي تخطط لاحتياجاتها من مختلف فئات  
الفنيين .

### الى تقدم العلوم والتكنولوجيا على التعليم الجامعي

وقد احدث التقدم الهائل في العلوم والتكنولوجيا  
في السنوات الاخيرة تغيرا جذريا في الحياة الفكرية في  
الجامعات ، وادى الى انشاء أنواع جديدة من معاهد  
البحث العلمي ، ومعاهد التعليم ، لم تكن موجودة  
من قبل .

وقد ادى هذا التقدم ايضا الى استخدام أجهزة  
علمية .. معقدة .. غالبية الثمن ، مما أدى - بدوره -  
الى ارتفاع نفقات البحث العلمي ، والتعليم الجامعي .

واحدث ذلك كله تغيرات واضحة في التعليم  
الجامعي والعالي ، فقد ادى ظهور تخصصات جديدة  
- وفتتها الى تخصصات ادق - الى زيادة عدد الطلاب

الدارسين في هذه المجالات . سنة بعد أخرى . وارتفاع  
نسبة هؤلاء الطلاب الى عدد الطلاب الدارسين للعلوم  
التقليدية والعلوم الانسانية .

وقد ادى هذا التطور - ايضا - الى زيادة عدد  
المعاهد التكنولوجية ، سواء داخل الجامعات او خارجها ،  
لتلاحق تدريب الاخصائيين في هذه المجالات الحديثة .

وكان على الجامعات في ظل هذا التطور . ان  
توازن بين حجم التعليم . وحجم البحث العلمي بها ؛  
فحدث نمو هائل في برامج البحوث العلمية ، بل صبغ  
التعليم الجامعي نفسه بروح البحث العلمي . واصبح  
هدف هذا التعليم .. هو أعداد الاخصائيين القادرين  
على التطور مع التطور السريع للعلوم .

وكان تأثير تقدم البحث العلمي واضحا على نمو  
الدراسات العليا بالجامعات ، واصبح لزاما ان تتعاون  
الجامعات تعاونًا وثيقًا مع مراكز البحث المتخصصة .

واصبح ضروريا وضع سياسة للبحث العلمي ..  
تضمن تنسيق برامج البحوث وعدم تكرارها ، وحسن  
استغلال التمويل المتاح لها .

واصبح لزاما - كذلك - التنسيق بين البحوث  
العلمية البحتة ، والبحوث التطبيقية اللازمة لتطوير  
الصناعة والإنتاج ، لصالح المجتمع .

وقد ادى تقدم العلوم التكنولوجية ايضا الى  
ادخال وسائل تعليمية حديثة بسرت نشر التعليم  
الجامعي ، ونقل المعلومات في سهولة على نطاق أوسع ،  
ويسرت ايضا تسجيل نتائج البحوث العلمية وتبويب  
برامجها . ومن هذه الوسائل الحديثة النافعة : ادخال  
التليفزيون في التعليم ، واستعمال العقول الالكترونية  
في البحث العلمي ، والاستعانة بمعامل اللغات ، ومراكز  
التوثيق العلمي وما الى ذلك من ميسرات التعليم  
والبحث .

الا ان الاهتمام الزائد بالعلوم التطبيقية ، وزيادة  
الاقبال عليها ، ينبغي الا يصرفنا عن الاهتمام بالعلوم  
الانسانية - كما سبق ان اسلفنا - فان هذه العلوم هي  
التي تعطي للطالب الجامعي الفرصة لتفهم تاريخ ما  
يدرسه من علوم - وتفهم مشاكل المجتمع واحتياجاته ،  
وان النهج الصحيح للعلاقة بين العلوم الانسانية والعلوم  
التطبيقية من شأنه ان يهدم الحواجز بين طرفي  
المعرفة .

## بعض النواحي العلمية في التعليم الجامعي

### نمو المعرفة :

الجامعة هي مجتمع الاساتذة والطلاب ، وهي مركز للعلم والمعرفة . . لم تتغير هذه الرسالة منذ القدم ، رغم تغير تكوين الجامعات وتطور اسلوب عملها .

ورغم المؤثرات التي كانت تصبغ التعليم الجامعي في مختلف العصور ، فقد كانت الجامعات - ولا تزال - تعطي اهتمامها الاول للاستزادة من المعرفة ونشرها على اوسع نطاق ، اذ يتميز الفكر الجامعي باهتمامه على البحث والملاحظة والتجربة ، ثم تفسير مشاهداته ليصل الى المعرفة . .

والمجتمع الناجع للاساتذة والطلاب ، تنمو فيه العلاقة الانسانية بين الاستاذ والطالب بحيث يحرص الاستاذ على رعاية طلابه وتوجيههم ليكونوا مواطنين صالحين اولاً ، ومتخصصين مؤهلين ثانياً . كل فيما هيء له ليؤدي رسالته في خدمة المجتمع وخدمة الانسانية . مواطن صالح على درجة من الثقافة العامة تتيح له اكتشاف طريقة في الحياة وتمكنه من الاستزادة من العلم ، وعلى درجة من الدراية الفنية في نوع من فروع العلوم التطبيقية تمكنه من خدمة المجتمع الذي يعيثر فيه . .

ويحتاج هذا الاعداد الى دراسات اساسية موحدة ، يقضي فيها الطالب الجامعي الجديد - مهما يكن تخصصه المستقبل - عاماً او بعض عام ، يدرس فيها منهجاً مناسباً من العلوم الانسانية ، يتيح لطلاب العلم في الجامعة اساساً مشتركاً من المعرفة .

وفي بعض الجامعات تتألف هذه الدراسة من علوم التاريخ ، والاجتماع ، والفلسفة والدين ، تتكفل بتدريسها اقسام العلوم الانسانية بالجامعة ، وبحيث يكون لدى الطالب في نهاية هذه المرحلة الاعدادية او مرحلة الاساس كما سميت في بعض الجامعات الحديثة فهم واضح للاسلوب العلمي في التفكير ، وفكرة صحيحة من نشأة العلوم وتطورها ، ودراسة علمية لتركيب المجتمع واحتياجاته ، وعلاقة كل ذلك بما يدرسه الطالب من علوم تطبيقية .

وتهتم الجامعات - خلال هذه المرحلة - بدراسة تاريخ العلوم ، ودراسة ما اسهم به السلف من جهود في ميادين العلم والمعرفة ، حتى يكون ذلك حافظاً قومياً

وقوياً على البحث والدراسة ، ومثلاً يحتذى في تنمية العلم والمعرفة .

ولا شك ان رسالة الجامعات . في عالمنا الحديث لم تعد مقصورة على الاهداف التقليدية من حيث البحث من المعرفة وتاصيلها ونشرها . يوم ان كانت الجامعات مقصورة على الآداب والعلوم البحتة . وانما امتدت تلك الرسالة حتى كادت تشمل كل نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، والسياسية والعلمية ، والتكنولوجية وقد اصبح من الطبيعي ، في عالمنا الحديث ، ان تتقابل الجامعات مع المجتمع . لبحث حاجاته ، والاستجابة لمتطلباته .

### الجامعة والبحث العلمي

البحث العلمي دعامة من اهم دعائم التعليم الجامعي ، واستاذ الجامعة من خصائصه المميزة انه باحث يجمع مع ممارسته للتعليم نشاطه في البحث العلمي . بل ان الجامعات تشترط في الاستاذ ان يكون باحثاً بصفة اساسية . قبل اختبار قدرته على القاء المحاضرات والدروس .

وتهتم بعض الجامعات ببث روح البحث العلمي في الطالب ، وهو لا يزال في مرحلة الدراسة لدرجة البكالوريوس ، ففي روسيا - مثلاً - يشجع الطلاب في هذه المرحلة على الاشتراك فيما يجريه اساتذتهم من بحوث ، وربما وصل عدد الطلاب المشاركين في البحوث الى عشر مجموع طلاب الفرقة .

الا ان الاستاذ يحتاج الى مزيد من الوقت للتفرغ للبحث العلمي ، وبخاصة في هذا العصر الذي ازداد فيه عدد الطلاب في الجامعات زيادة كبيرة ، والوقت هذه الزيادة عبئاً مضافاً على قلة من اعضاء هيئة التدريس .

ولجات بعض الجامعات - ابقاء على نشاط الاستاذ في مجال البحث العلمي - الى انشاء مراكز متخصصة للبحوث ، يعمل فيها الاساتذة في اوقات محددة ، غير اوقات عملهم التعليمي ، حتى تضمن استمرار البحث العلمي ، وعدم طغيان الواجبات التعليمية عليه .

وكثيراً ما اثيرت نوعية البحث العلمي ، كنوع من انواع النشاط البارز والمميز للحياة الجامعية ، وهل هذا البحث هو مجرد حاجة علمية او ما يسمى بالبحث المجرد او البحث الاكاديمي ، او ان البحث يجب ان يهدف الى حل مشاكل تطبيقية تخدم افراض المجتمع .

البحوث في معامل متفرقة في الهيئات والوزارات المختلفة .

وبدراسة المشاكل العلمية ومجالات البحث التي يتعرض لها هؤلاء الباحثون ، يتضح لنا أن هناك عملا كبيرا لا يزال ينتظر القائمين على تنظيم البحث العلمي في بلادنا من حيث حصر المشاكل التطبيقية التي تعوق الصناعة ، أو التي تعوق التنمية الاجتماعية . ثم العمل على إيصال هذه المشاكل إلى المتخصصين . للبحث فيها ، وإيجاد الرابطة القوية بين الباحث ومجال البحث التطبيقي المطلوب .

بدأت بالفعل خطوات لتدعيم جهاز البحث العلمي في الجامعات المصرية ، فبالإضافة إلى تزايد عدد الحاصلين على درجة الدكتوراه في فروع التخصص العلمية المختلفة ، اهتمت الجامعات في السنوات الأخيرة بتدعيم الدراسات العليا بها ، وبزيادة عدد المعيدين زيادة كبيرة ، واعتبارهم - أساسا - طلاب بحث قبل أن يكونوا معاونين في التعليم . إلا أن الأمر يحتاج ، بالإضافة إلى ذلك ، إلى مزيد من الاهتمام بما يحتاجه البحث العلمي من أجهزة ومعدات ، ومساعدين فنيين ، ومكتبات علمية ، وغير ذلك من مقومات البحث العلمي في العصر الحديث . ولا يمكن تدبير ذلك كله دون تدبير الموارد المالية اللازمة .

ويجب أن نتفق على أن الانفاق على البحث العلمي هو من قبيل الاستثمار الذي يؤديه - بطريق غير مباشر - إلى زيادة الإنتاج ، كما سبق أن أوضحنا وما دام البحث العلمي قد ارتبط بالإنتاج فقد اتفقت الآراء على ضرورة تخصيص نسبة معينة تقدر بواحد في المائة من الدخل القومي ، للانفاق على البحث العلمي .

#### الدراسات العليا واعداد المتخصصين :

ولا يقتصر النشاط التعليمي للجامعة على طلاب مرحلة الليسانس أو البكالوريوس ، بل يمتد إلى ما بعد هذه المرحلة ، ولا نفالي إذ نقول أن مرحلة الدراسات العليا هي الزم لنمو الجامعة وتقدم البحث العلمي بها ، من المرحلة الأولى ، وبخاصة وأن مرحلة الدراسات العليا تختلف في أسلوبها عن سابقتها ، وتتميز بكثير من الفكر المستقل ، ويظهر عناصر الابتكار في البحث العلمي ، وبخاصة في مراحل الدكتوراه .

وقد استقر الرأي في العصر الحديث على أن البحث العلمي يجب أن يأخذ - بعين الاعتبار - حاجات المجتمع التي تمثل الجامعة ركنا من أهم أركانه ، ولا يمنع ذلك قيام الباحث بما يشبع رغبته ، وينمي فرع تخصصه من البحوث الأكاديمية .

إذ إن البحوث الأكاديمية - مبالوة على أنها استثمار طويل الأجل في مجال البحث العلمي . . تظهر تطبيقاته العملية فيما بعد - فانها عامل أساسي في نمو العلم والمعرفة وفي تكوين الجو العلمي السليم ، داخل الجامعة ، وتربية طلابها وطلاب البحث التربوية العلمية الصحيحة وتمويدهم التفكير المنطقي السليم .

وبالإضافة إلى ذلك كله ، فإن تدعيم هذه البحوث يشكل الرصيد الأكبر للمكانة العلمية للجامعة .

لذا ، فإن المصلحة العامة تقضي بأن يكون هناك قدر من التنسيق والتوازن بين البحث في العلوم الأساسية ( البحوث الأكاديمية ) وبين البحوث التطبيقية ، التي تسهم في حل مشكلات محددة . كما يجب أن يكون هناك أيضا قدر من التنسيق بين ما يجري من بحوث في الجامعات ، وبين ما يجري في مراكز البحوث المختصة التي تهتم - أساسا - بالبحوث التطبيقية الخاصة بمشاكل الصناعة .

ومن هذه الزاوية الأخيرة - زاوية البحث العلمي التطبيقي - فإن الجامعات تؤدي دورا هاما في خدمة المجتمع ، فالبحث العلمي يؤدي إلى استخدام الموارد المتاحة ، بصورة أكثر فعالية ، وبالتالي فهو يؤدي إلى زيادة الإنتاج .

ويهدف البحث العلمي - كذلك - إلى ابتكار وسائل جديدة لتطوير الزراعة والصناعة ، وزيادة إنتاجها ، وبالتالي . . إلى نمو اقتصادي يتلوه بالطبيعة نمو اجتماعي .

وإذن ، فإن الاهتمام بالبحث العلمي - في الجامعات ، ومراكز البحوث المتخصصة ، على حد سواء ، والاهتمام بتنسيقه هو من الزم الأمور ، لتنمية المجتمع ، وتقدمه . وهو الزم في المجتمعات النامية التي تسمى جاهدة إلى تضييق الشقة الواسعة بينها وبين المجتمعات المتقدمة .

وفي الجمهورية العربية المتحدة تجري 60 ٪ من البحوث العلمية في الجامعات ، وحوالي 17 ٪ من هذه البحوث في مراكز البحوث المتخصصة ، وتجري باقي



## حياة الطالب في الجامعة

ان طالب الجامعة ، من وجهة نظر عامة ، هو المحور الذي يقوم من اجله التعليم الجامعي ، فمن اجله يخطط هذا التعليم وتوضع اسيسه ، وتحدد برامجه واهدافه بغية اعداد الطالب مواطنا صالحا ، قادرا على القيام بعمل محدد في البناء الاقتصادي ، والثقافي ، والفكري للبلاد .

فحياة الطالب في الجامعة اذن ، يجب ان تحظى باهتمام خاص كي تحقق اهداف التعليم الجامعي ...

ويجب ان تبذل الجامعة جهدا ايجابيا في دراسة الصعوبات التي تترسض حياة الطالب ، وبخاصة منذ اول التحاقه بالجامعة .

يجب ان تقوم اجهزة متخصصة في ادارة الجامعة بهذه الدراسات ، وان تتوفر للتصدي لها ، وايجاد الحلول العلمية التي تيسر للطلاب حياتهم ، وتضمن تفرغهم للدرس والتحصيل . ويجب ان يساهم الاساتذة ، وتشكيلات اتحاد الطلاب في هذا الجهد ، فهو واجب اساسي لكلا الطرفين ، وهو محقق لاهداف وجودهما معا .

ان الطالب يدخل الى الجامعة مفتريا ، ربما لأول مرة . وهو يتوقع حياة جديدة تماما ، حياة تختلف عما مارسه في المدرسة الثانوية ، يتوقع في الجامعة نسطا اوفر من الحرية الشخصية ، وعلاقة اوثق مع استاذة ، وقادرا اوفر من حرية التعبير والنقد ، والفكر والمناقشة . وواجب الجامعة ان تشجع الطالب على ممارسة حياته الجديدة ، وان تنمي فيه هذه الصفات ، وان ترعاه اجتماعيا ، ونفسيا ، بجانب رعايته تعليميا وثقافيا .

ان الصعوبات التي تقابل الطالب - عند التحاقه بالجامعة - متعددة الجوانب : منها ما يتعلق بحياته الاجتماعية كصعوبات السكن والاهاشة ، سواء ما يتعلق منها بقدرته المادية على تدبير امور معاشه او قدرته النفسية على التكيف مع هذه الحياة الجديدة ، ومنها ما يتعلق بقدرة الطالب على مقابلة النفقات المختلفة للحياة الجامعية رغم مجانية التعليم الجامعي .

ومنها مصاعب تتعلق بأسلوب التعليم الجامعي نفسه ، وسائله وبرامجه ، وامكانيات نجاحه سواء من حيث لغة الدراسة ان كانت غير اللغة العربية ، او مصاعب الحصول على الكتب الجامعية او الخدمات المكتبية او غير ذلك من الوسائل التعليمية المختلفة .

ويقوم على اكتاف الباحثين - في هذه المرحلة - عبء كبير مما يجري في الجامعات من بحوث تحت اشراف الاساتذة الذين يمثلون الطليعة في البحث العلمي كل في ميدان تخصصه .

ويزداد عدد طلاب الدراسات العليا بالجامعات ، وزيادة مطردة ، عاما بعد عام ، قدر حاجة المجتمع الى متخصصين في فروع العلوم التطبيقية ، وقدر حاجة الجامعات الى مزيد من اعضاء هيئة التدريس لمواجهة التزامات التوسع في التعليم الجامعي ، وفي أنشطة البحث العلمي .

ولا يشترط ان تجري الدراسة العليا كلها داخل الجامعة . بل - في كثير من الاحيان - يقوم تعاون وثيق بين الجامعة وبين المعاهد المتخصصة في هذا المجال ، بل ويحدد - في بعض الاحيان - انشاء مدارس متخصصة للدراسات العليا . . تكون مرتبطة بالجامعة وبمراكز البحوث المختلفة .

ولا تقتصر الدراسات الجامعية على طلاب التخصص والبحوث . بل ان من واجب الجامعة ان تنشر العلم والمعرفة في المجتمع حولها ، وان تعد برامج متقدمة للعاملين في المجالات المختلفة - في الصناعة وغيرها - ليستمر اتصال العاملين فيها ، . بالتقدم العلمي ، في مجال عملهم .

وسوف نجد كل هذه الأنشطة الجامعية قائمة بنجاح تام في البلاد العربية في التعليم الجامعي ، والمتقدمة في العلوم والتكنولوجيا . اما في البلاد النامية حيث كان التوسع في التعليم الجامعي سريما بمد مرحلة الاستقلال ، فلا نتصور ان تنمو الدراسات العليا والبحوث بنفس السرعة او القوة التي تنمو بها في الجامعات القديمة ، وهنا يأتي دور التعاون الدولي في هذا المجال : تعاون على نطاق اقليمي ، وتعاون على نطاق دولي في نطاق تنظيمات الامم المتحدة وغيرها .

وقد ظهر في الاموم الاخيرة اتجاه الى تشكيل اتحادات اقليمية وعالمية لجامعات ، نذكر منها . . الاتحاد العالمي للجامعات ، واتحاد الجامعات العربية ، واتحاد الجامعات الافريقية .

ولا يزال الوقت مبكرا للحكم على مدى الفائدة التي يجنيها التعليم الجامعي ، من هذه التنظيمات .

ان استعراض هذه الأمور يوضح مدى الحاجة الى زيادة اهتمام القائمين على شؤون التعليم الجامعي .. بحياة الطلاب ، داخل الجامعة ، وتعاطفهم معهم وتوجيههم الى افضل السبل واسلمها .. نحو حياة جامعية صحيحة .

يجب ان يوجه اتحاد الطلاب الى الاهتمام بحياة الطالب الاجتماعية والثقافية ، والاشترالك مع المسؤولين من أمور الجامعة اشتراكا فعالا في تلمس الحلول للمشاكل اليومية التي تصادف الطلاب ... من طريقة دراسة وبحث هذه المشاكل ، واقتراح الحلول العملية لها ، التي تتفق وظروف البيئة والامكانيات المتاحة للجامعة .

يتضح - اذن - ان حياة الطالب في الجامعة ، تحتاج الى مقومات معينة ، وعلى الاخصر في نواحي الاسكان والاعاشة ، ونواحي التربية الرياضية والثقافية ، ثم الاهتمام - اكبر الاهتمام - بالنواحي التعليمية ، من حيث البرامج والطرق والوسائل وتطويرها تطويرا مستمرا ، لتساير التقدم العالمي في هذا الاتجاه .

فمن ناحية الاسكان والاعاشة ، يجب ان تحظى المدن الجامعية وما تؤدبه من خدمات باهمية خاصة . وان تتوسع الجامعات في هذه الخدمات الى اقصى حد ممكن فلا يخفى علينا الفوائد الاجتماعية والثقافية والنفسية المتعددة التي يجنيها الطلاب من الإقامة في المدن الجامعية ، وبخاصة اذا اشرف عليها الاساتذة اشرافا فعالا .

ومما يذكر ان عدد الطلاب الذين تستوعبهم المدن الجامعية في بعض البلاد يبلغ 50 ٪ او اكثر من عدد طلاب الجامعة .

وهناك حاجة ايضا الى زيادة الاهتمام بالحياة الرياضية والثقافية للطلاب ، ويستدعي ذلك فسح الوقت الكافي في جدول الدراسة ، ليزاول كل طالب ما يهينه له استعدادا ، من هذه الأنشطة ، كما يستدعي الامر ان تهتم كل جامعة بتوفير الاماكن والامكانيات التي تسير للطلاب مزاولتها .

ان الرعاية الصحية للطلاب - وقاية وعلاجاً - منصر اساسي توفره الجامعات لطلابها . كما ان التفدية - نظير رسوم رمزية - امر ضروري وحيوي - اثبتت المشاهدة والخبرة اهميته واولويته .

ومع الاهتمام بالاعاشة والاقامة وتوفير الرعاية الصحية ، ورغم مجانية التعليم الجامعي فلا يزال هناك

عدد غير قليل من الطلاب لا تمكنه قدرته المادية من الاستمرار في التعليم الجامعي رغم تفوقه في بعض الاحيان - اذ قد تعجزه رسوم الإقامة القليلة . او ما تتطلبه الكتب والمذكرات من مال ... هؤلاء جميعا يجب ان تدبر لهم الجامعة موردا ماليا - كما هو الحال في كثير من الجامعات يتفق منه للطلاب على هيئة اعانات او قروض طويلة الاجل - تسدد - دون فوائد بعد انتهاء الدراسة الجامعية ... ولا يؤثر ذلك بطبيعة الحال في الحوافز التي يحصل عليها المتفوقون من الطلاب في شكل جوائز مالية مجزية .

وفي الناحية التعليمية يلزم التنويه بأمريين .. الاول ضرورة توفير امكانيات نجاح التعليم الجامعي . بادئين بالاعداد السليم لهيئة التدريس - كما وكيفا - ثم توفير الوسائل التعليمية الحديثة والامكانيات العملية والمكتبات وغيرها .

والامر الثاني .. المراجعة المستمرة لطرق التدريس وبرامجه وطرق الامتحان ووسائله . مع الاخذ بعين الاعتبار انعكاس هذه الطرق على الطلاب واستجابتهم لها .

ان نجاح العملية التعليمية نفسها مكمل لنجاح رسالة الجامعة ، ومؤثر على نجاح الطالب الذي وفرت له الجامعة المناخ النفسي الذي يمكنه من الاستفادة من امكانياتها العلمية .

ان الاستثمار في التعليم الجامعي والعالي - وهو استثمار للتعليم والتدريس - هو استثمار لزيادة الانتاج والارتفاع بمستواه ، وهو بذلك استثمار للتنمية وتحقيق مستوى افضل للمعيشة ...

ان الاهتمام بحياة الطالب في الجامعة - وعلى هذه الصورة - لهو من اهم انغوامل التي تتيح للتعليم الجامعي ان يحقق اهدافه . والاهتمام بحياة الطالب مسؤولية اجهزة الجامعة ، كما هو مسؤولية استاذ الجامعة . ويجب ان يشجع الطلاب - من طريق تشكيلات الاتحادات الطلابية - على ابداء الراي والمناقشة ، والدرس ، والبحث فيما يعرض لهم من مشاكل في حياتهم الجامعية .

ويجب ان تمتص الجامعة ، وينصت الاستاذ الى ما يخلج في هذه النفوس الشابة من مشاعر ، وما يسري بين جنباتها من خلجات . ولا يجب ان نخلط بين الوصاية على أنشطة اتحادات الطلاب وبين العلاقة الجامعية الروحية التي تسود بين الاستاذ والطالب ، فهي اساس الحياة الجامعية والمحقة لكيانها .

# تحليل علمي ونظر المعيارية شامل يجب ان يكونا أساسا لفكر عربي احدث المجرد من كل تبعية ثقافية الأستاذ محمد عبدالمطوف (تونس)

النظام الراسمي بهدف اولا وقبل كل شيء الى الربح الفردي ، ومن قال ربعا فرديا قال انانية وجشما واستغلالا وجميع التناقضات الاجتماعية .

وهذا مثال آخر . لناخذ مثلا مشكل التناسل والازدياد الديمغرافي باعتباره مشكل القرن العشرين ، وما يشيره هذا المشكل من تقاسم حاد ، فسان الاختبارات التونسية ، هي كما اكسد الاخ احمد بن صالح في الملتقى المغربي للديمغرافيا (1) ترمي الى الحد من الازدياد الكمي للسكان ( بواسطة اجراءات وقائية ) كتعلة لحل مشكلة التمنية الاقتصادية ، وانما تهدف في الحقيقة والواقع ، الى تنظيم العائلة التونسية . وارسائها على قواعد علمية سليمة ، منسجمة مع امكانيات العائلة نفسها ، الكفيلة بتوفير الحاجيات المادية والادبية لاطفالها ، حتى يكون هؤلاء في المستقبل عناصر سكانية حية وفعالة ، في زيادة الانتاج والانتاجية وتنميتها .

## تخلف الفكر والواقع :

يمكننا ان نؤكد هنا بان المجتمع التونسي - رغم محاولات التطوير الجريئة - ما زال يعد متخلفا بالنسبة للمجتمعات المتقدمة ، ومتقدما بالنسبة للمجتمعات الاخرى المتخلفة ، واذا حاولنا تحليل هذا التخلف وجدناه يتناول الميدان الاقتصادي ، والاجتماعي ،

المذهب عامة ، هو غير النظرية وغير النظام ، وكثيرا ما يخلط الناس بينهما جميعا . فالنظرية الاقتصادية او الاجتماعية او غيرها . تمكس صورة الفكر في وجهه العلمي المجرد . عندما يبلغ الفكر مستوى معين من الرقي في تحليل الظواهر الاقتصادية والاجتماعية تحللا علميا . قصد تفسيرها والكشف عن القوانين الاقتصادية والاجتماعية التي تسيطر الانسان وتتحكم في واقعه ونشاطه .

اما قاموس اسفورد ، فهو يعرف النظام عامة ، بانه مجموعة من الاشياء متصلة بعضها ببعض بحيث تتكون منها وحدة مركبة .

والنظام الاقتصادي والاجتماعي ، هو مجموعة العناصر القانونية والاجتماعية مثلا : النظام ، الاقتصاد المغلق ، الاقتصاد الاشتراكي والشيوعي ، والنظام التماضدي الذي اخذت به تونس كاختيار اشتراكي وقومي في نفس الوقت ، والان وبعد ان عرفنا النظرية والنظام سيتضح لنا ما هو المذهب ؟ فالمذهب عامة ، هو المنهج الايديولوجي الذي يقود الفكر الى الحكم بافضلية نظام معين او بعدم جدواه كان يقال : بان النظام الاشتراكي التماضدي الذي اختارته تونس ، هو افضل من النظام الراسمي ، لان النظام الاول يحقق في نفس الوقت العدالة الاجتماعية ، كما يحقق الديمقراطية الاقتصادية ، والحرية السياسية ، بينما

( 1 ) انظر لنا تحقيقا مفصلا في حلقتين حول : الملتقى المغربي للديمغرافيا . العدد 120 والعدد 121 من مجلة الشعب لمرّة فيفري و 16 منه 1969 . ( للمؤلف ) .

طاقات المجتمعات الفنية كما يتسبب في كوارث وخسائر لا تدخل تحت عدد أو حصر ، فهل عمل المسلمون بمبدأ : « ... وأهدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم » ؟

### التبعية الثقافية والمذهبية وانحرافاتها

ان المجتمعات العربية والإسلامية ومنها تونس ، بمعطياتها المادية ، والاجتماعية ، والتاريخية ، تملئ علينا طريقة خاصة في التحليل والاستنتاج لا يشاركنا فيها الأجانب ، فننجرب - ونحن أبناء هذا المجتمع الفني لحما ودما - أن نهضم ما درسناه في الشرق أو الغرب وان نستقل بوضع طريقة علمية ، وعلم اجتماع تونسي ، عربي ، إسلامي ، له طرائقه وأساليبه لدراسة مجتمعاتنا في جميع الميادين والقطاعات ، وفي تحليل هذا الواقع بما احتوى عليه من قيسم فنية خاداة ، الى جانب ما تضمنه من فوضى وتناقض صنعت بعضها عصور الظلام والانحطاط (3) وصنع بعضها الآخر تخلفنا الفكري والمادي طيلة الاحتلال الاستعماري في العصر الحديث ...

ان استعمال المناهج والمذاهب المستوردة في دراسة مجتمعاتنا دون نظر الى طبيعته ، وحاجته ، وروحه ، هو خطأ منهجي في منتهى الخطورة ، انه مصدر سوء التفاهم والالتباس الذي كثيرا ما يقع في استعمال المناهج العلمية في تفسير ما وضعت له ، والواقع ان المجتمعات الاوربية تختلف طبيعة ونوعا عن مجتمعاتنا العربية والإسلامية كما تختلف عن المجتمعات الاخرى الافريقية الاسيوية ، ذلك ان المجتمعات الاوربية الحديثة والمعاصرة خاصة ، قد تأثرت بمؤثرات ، وحفت بها ملابسات ، ما رأها ولا عاشتها بمجتمعات العالم الثالث ... كالثورات المختلفة التي عصفت وما تزال تمصق بالمجتمعات الاوربية الغربية والشرقية : فمن ثورة فكرية في القرن السابع عشر ، الى ثورة سياسية في القرن الثامن عشر ، الى اخرى صناعية في القرن التاسع عشر الى ثورة اجتماعية لا تزال نميش لفضولها حتى اليوم ، كل

والفكري . في وقت واحد . وهذا يعني ان هذا التخلف المتعدد الجوانب هو نتاج حتمي لتلك الهياكل والتركيبات الاقتصادية والاجتماعية التقليدية والمتجاوزة ، هذا التخلف ذاته في الهياكل والتركيبات يولد التخلف في الفكر ، والعكس صحيح أيضا اي ان التخلف الفكري ، قد ينمي التخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، فالمبني على الفساد فاسد ، كما يقال ، نحن اذن امام وحدة تركيبية تمثل التخلف في اجلي « تماساته » ، ومن الملاحظ ان المجتمعات المختلفة بصفة عامة هي مجتمعات ، التحليل والبحث العلمي فيها متخلفان ايضا .

فما احوجنا اليوم ، الى ان نعمل بكلمات الاسر التي وجهها منذ اكثر من عشرة قرون ، الاستاذ القيرواني أبو محمد ابن التبان الى بعض من تعلم عليه قائلا : « خذ من النحو ودع ، وخذ من الشعر وقل ، وخذ من الطب واكثر ، فما احد اخذ كثيرا من النحو الا احمقه ، ولا من الشعر الا اذله ، ولا من العلم الا شرفه ... » (1)

فمجتمعات يكثر فيها الانشاد الشعري ، وتكثر فيها المهارات اللغوية ويقل فيها التحليل العلمي هي مجتمعات ، اما ان تكون سائرة ببطء في التنمية ، واما ان تكون كالواقفة ، تقدم رجلا وتؤخر اخرى ، فهي بهذا الاعتبار كالراكدة ، واخيرا المجتمعات التي تتقدم خطوة الى الامام وتتقهقر خطوات الى الوراء هي بهذا الاعتبار سائرة في طريق النمو في التخلف .

ان ضعف الثقافة التاريخية والعلمية ، وفقدان البحوث والتحقيقات العلمية المتعلقة بجميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية ، والثقافية ، والتربوية ، كل ذلك يفسر لنا اسباب انحراف بعض الايديولوجيين وسياسيين العالم الثالث :

ان هؤلاء يتخبطون في فوضى فكرية هي - في رأينا - اتمس من الفوضى الاجتماعية والاقتصادية (2) اذن نرى ، كيف ان التخلف المادي ينمي التخلف الفكري ويقود الى ما شاء الله من الحلقات المفرقة واللف والدوران . وهذا كله يقود الى اهدار

(1) انظر : معالم الايمان في معرفة اهل القيروان لابن ناجي - الجزء الثالث - ص : 117 ( المطبعة العربية التونسية سنة 1320 هـ ) .

(2) العبارة الفرنسية قد تترجم اكثر هذه الفكرة : Cahot mental plus cahotique que le cahot social...

(3) انظر دراستنا عن المجتمع التونسي بين القرن الرابع عشر والثامن عشر . والانحطاط الثقافي في العالم الاسلامي ، ( بالفرنسية ) في مجلة جوهر الاسلام - العدد 8 - جانفي 1969 - ص 15 - 20

هذه الثورات بمذاهبها المختلفة وملابسائها الخاصة جعلت المجتمع الاوربي والغربي تركيبات وانظمة خاصة به .

وبحكم تأثر الباحثين الاوربيين - مدا وجزرا - بكل ما تقدم ذكره ، وبحكم استجابتهم لميولهم الخاصة وعواطفهم الشخصية ، كل ذلك جعلهم على المصوم يقفون غالبا من التاريخ والمجتمع موقفا حياديا باسم الزعم القائل بالموضوعية والحياد العلمي ، فاذا ارادوا دراسة مجتمعا ، رغم جهلهم الظاهر بطبيعته وروحه ولفته ... استعملوا وسائل منهجية قد تكون صالحة لدراسة مجتمعاتهم ، لكنها غير صالحة لدراسة مجتمعا او مجتمعات العالم الثالث من افريقية وآسوية ، فالباحثون الاجانب عموما لا يدركون ولا يفهمون ، وما كان باستطاعتهم ان يدركوا او يفهموا : طبيعة مجتمعا والتطور التاريخي والاجتماعي لها ، فاذا تهافت باحثونا - وقد تهافتوا ويا للأسف الا من رحم ربك - على هذه الطرق المستوردة غشا وسمينا فانهم يفقدون بذلك موضوع بحثهم ويقعون في خطأ منهجي فاحش .

لا بد ، اذن . من اعادة النظر في جبل دراسات الاوربيين والمستشرقين ومن دار في فلهم ، ان اكثر هذه الدراسات - لى رابنا ، وخاصة التاريخية منها اعتمدت على طرق تحليلية نقدية ، لكنها تجريدية وحيادية ، فهي من هذه الزاوية الاخيرة : مضرة جدا وعقيمة جدا . لانها تهمل النظرة المياريية الشاملة وتحكم على النصوص والوثائق بطريقة تحكمية ساذجة ، فالتشك مثلا ، في جزئية تاريخية ، من خلال النصوص . قد يلغى فترة تاريخية باكملها ، وهذا هو السبب الذي قلص التاريخ الاسلامي باكملة الى قرنين من الزمن تقريبا ، اضعف الى هذا جهل الباحثين الاجانب . بروح الحضارة العربية والاسلامية : مع ما يتبع ذلك من اضعاف مزاجهم الاستعماري او تعصبهم كأوربيين « متفوقين » ، ذي ارجل بيضاء او سوداء ، كاثوليكيين كانوا ام بروتستانت ، لالكبين ام ملحدين ، ذوي تنكير لاطيني او جرمانى او انجلوسكسونى او فكيف تكون بعد ذلك ، دراسات هؤلاء الاجانب ، من الناحية العلمية والموضوعية ؟ .

ان عدم ثقتنا بانفسنا وتخلفنا يحجب الينا كل ما هو اجنبي ، الى حد ان يوجد بين ظهرانينا جماعات تعتقد ان الخير كل الخير هو في تقليد اوربا الغربية ، وامريكا السكسونية ، وروسيا السلافية : والمانيا الجرمانية . اضعف الى ذلك اننا ما زلنا نتابع ذلك

التكوين الثقافي الغريب واللاعلمي حتى اليوم . مثلا : ما رايبكم في تكوين رجل من تونس ، او من قطر مغربي آخر يدرس اللغة العربية وفقها ، او اللغة العربية وآدابها او الحضارة العربية وتاريخ الادب العربي في فرنسا ... عن طريق اللغة الفرنسية وعلى اساتذة فرنسيين ؟ تخيلوا فرنسا يفادر بلاده الى الولايات المتحدة ليدرس لغته القومية وعقومتها وتاريخ بلاده على يد اساتذة امريكيين ، وعلى الرغم من كل ذلك نعتبر ان لكل قاعدة شواذها : فنحن لا ننكر فضل دراسات بعض الاعلام من المستشرقين الاوربيين المجتهدين امثال ماسينيون (Massignon) وماكسيم رودنسون (M. Rodinson) وجاك بارك (I. Berque) ولاوست (Laoust)

وبروكلمن وشاخست (Shacht) اما اننا لا ننكر فضل طرق العمل التقنيية المنظمة . التي سلكها ويسلكها رجال العلم في اوربا وامريكا ... خاصة فيما يتعلق بطرق البحث الفنية من تنظيم وتصنيف وتقسيم للعمل ... بعد هذا العرض لا مجال للتهافت على الفث والسمين من دراسات الاوربيين ، والاطمنان العلمي الاعمى لكل ما ينتجه هؤلاء الاجانب ، وانسج على منوال طرق بحثهم التجريدية والسلبية .

فهل يستطيع المفكرون والمؤرخون اليوم في العالم الثالث ان يبقوا هكذا مكتوفي الايدي حيايين امام مشاكل بلادهم ؟ وهل يستطيعون ان يفتسوا من خضم الايدولوجيات التي تعصف بمجتمعاتهم ؟ الى غير ذلك من التساؤلات ...

وبهذه المناسبة يسد لي ان اطرح على جميع المثقفين في هذا البلد السؤال التالي :

اذا كان من اختياراتنا القومية القضاء المبرم على التبعية الثقافية بعد ان قضينا على التبعية السياسية والاستعمار البغيض ، فكيف يمكن التحرر من التبعية الثقافية اذا لم نخطط جلدريا ومن الآن لبعوثنا التربوية والتعليمية الفلاحية . والاقتصادية والاجتماعية والحنوقية على الاثل ؟ فاذا بقينا هكذا تابعين مقلدين الى ما لا نهاية للمجتمعات الاجنبية . ومراكز بعوثنا ، واذا قرر الاجانب ان يعيدوا النظر جلدريا ومن الاساس ، في تنظيم جامعاتهم ومراكز بعوثهم ... فهل سنبقى نحن نترقبهم حتى يدخلوا التحويرات اللازمة على مؤسساتهم ، فنغلق مؤسساتنا وكياناتنا آنذاك ، ام كيف يكون العمل ؟ امام هذا الامر : وبهذه المناسبة فاننا نناشد بالباح السيد كاتب

استجلاب رضى اليافعين والبسطاء ؛ لقد شاع وانتشر هذا الاسلوب في عصرنا ويا للأسف ، واضر وما يزال يلحق الاضرار الجسيمة بالدين لم يهزم الرمي العاقل ولا اليقظة المنيفة ، لذلك حتى نشكك من تفكير هذا المنكر ، وتحويل هذا الواقع المتخلف ، نسوق الملاحظات التالية :

— عدم اهمال البحث الجدي والجدري لواقع مجتمعنا المتخلف ، وذلك باستعمال جميع طرائق البحث العلمي الفعالة من تاريخية واجتماعية واقتصادية ... فمن لم يمارس القيام بالبحوث والتحقيقات لجوانب هذا الواقع او بعضها ، لا حق له في الكلام والكتابة .

— مقاطعة الاسلوب الرتيب اللاعلمي الذي المعنا اليه والذي يتجلى في الامور التالية :

— الانسياق في لثررة نغمية وكلام لا ينتهي وخال من كل معنى القصد منه امتهان الناس واحراجهم .

— اطلاق الكلام بدون موضوع ولا هدف .

— عدم الاخلاص في تحمل المسؤولية والاضرار بجميع الناس وذلك بالاعتداء على اشخاصهم ومقدساتهم ... مع اعتبارنا لما سبق ، نعتقد ان الخير كل الخير هو في استعمال المنهج العلمي المعيارى ، وهو المنهج الذي يستعين بعلم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وكل ما وصلت اليه العلوم الطبيعية والتكنولوجية من نتائج ، هذا المنهج استعمل ويستعمل في الدراسات القومية والاشتراكية والشيوعية وهو من اكثر المناهج العلمية انتاجا وايجابية ، فاذا استعملناه نكون قد وضعنا انفسنا في بداية الطريق السوي لتحليل واقعا المتخلف ، واصلاح منهجنا الفكري المتخلف ، وبالتالي كان خطوة ايجابية الى الامام للقضاء على التخلف ومشتقاته وفتحنا موقفا لطرق التنمية الجدريه والرخاء الاقتصادي والاجتماعي ، فليبدأ باحثونا ، من الآن ، في جميع المعلومات وتحليلها واستنتاج تركيبات علمية (Synthèses scientifiques)

بدل اتباع منهجيات لا علمية والتعصب لايدولوجيات اعتباطية ذرائعية مثل بعض الماركسيين والمتركسين المنحرفين وغيرهم من التروتسكيين والفوضويين ، ان هؤلاء بصفتم — احبوا ام كرهوا — اعضاء في هذه الامة لحما ودما قد اهملوا الشروط الواقعية لبلادهم وشعبهم ، فاشتراكيتم تجريدية وخالية من كل محتوى اجتماعي ، اما اشتراكيتمنا فهي حل لمشكلة

الدولة للتربية القومية والاقتصاد الوطني ان يمضي قدما الى الامام ، في تونسنة وتعريب التعليم ، الجامعي ، وتنظيمه وربطه بالحياة القومية واعادة تنظيم مراكز البحث العلمي من حيث وضع البرامج والخطط لتوجيه الباحثين والبحوث ... حتى تعود بالخير على توجيه معركة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية في هذا البلد العزيز .

ليس مما يثلج الصدر حقا ، ان نرى تطبيق مشروع ادخال اللغة العربية والفكر الاسلامي كمادة اجبارية في التعليم العالي بجميع فرومه واختصاصاته ، فمن المعلوم . انه وقع الشروع في تطبيق برنامج خاص باللغة العربية والتفكير الاسلامي والحضارة العربية في كافة الكليات والمعاهد التي لم تكن تدرس العربية في كافة الكليات والمعاهد التي لم تكن تدرس القومية لتعاقد . وكلية الحقوق والعلوم الاقتصادية ؛ وكليات العلوم ، والطب ، والمدرسة القومية العليا للفلاحة ... اذن ان هذه الاجراءات التي اتخذتها كتابة الدولة للتربية القومية تعتبر في رايانا من الامور المساعدة لاندماج الطلبة في الحياة القومية ، حتى لا تنقطع الصلة بين طلاب الجامعة والواقع القومي الحي ، هذا الواقع الذي يقوم عليه تراثنا الثقافي والحضاري القديم والحديث نوطننا العزيز . اليس هذا مما يعزز مقومات شخصيتنا القومية ؟ كما يخطو بتعلمنا خطوة موفقة الى الامام ؟

بعد هذا التحليل السريع نقرر بكل وضوح ، اننا لسنا في حاجة الى جل المناهج المستوردة والمذاهب الايدولوجية في حقل العلوم التاريخية والاجتماعية ... فلنقتصر فقط على الاخذ بعلم الفرب والشرق المادي والتكنولوجيا والفني ولنترك ايدولوجياته ومذاهبه الفلسفية والعقائدية ، ونزغته الالحادية والوجودية والاستعمارية ... ولنتجنب دراسة تلك النظريات العوفاء المفرفة من كل محتوى والقسي والمفعمة بالمواطف اللاتية ، هناك مع الاسف افراد اذا قاموا بمحاضرات او بحوث اتخذوا ذلك الاسلوب الرتيب القيم الذي هو شغوف بوضع وترتيب علامات دورية (Style stéréotypé) وهي اشبه شيء بما يحدث عادة في المكتبات والصيدليات من تبويب للكتب والدوريات والادوية ، واذا حرروا مقالات كانت عبارة عن لثررة نغمية لا اكثر ولا اقل ؛ فبدلا من ان يبحثوا عن الحقائق من خلال الوقائع والاحداث كان همهم ان يكتبوا في جمل جدابة وقوالب محلات بالزخرفة والبديع وقصدهم من ذلك هو

التخلف الاقتصادي والاجتماعي والفكري وطريق الى النمو والتقدم - هذا الحل الاشتراكي هو حل قومي استوجبته حتمية تاريخية ودفعنا اليه واقعنا المتخلف، ان اشتراكتنا تركز قبل كل شيء على منطياتنا الدائمة والموضوعية وتستفيد بالدراسة من جميع النظريات والمذاهب الاشتراكية والخبرات الاجنبية على شرط ان تلائم واقعنا وذوقنا وروحنا ، وبذلك تكتسب اشتراكتنا شكلا ومحتوى واسلوبا قوميا مشحونا بالحياة ويتقبله شعبنا - نحن نؤمن من كسل كياننا ايماننا بالله وبانفسنا وبالعلم . بان الاشتراكية الانسانية هي انجع مذهب يخرجنا من التخلف ويدفعنا الى الامام ويحقق لنا اقتصادا جديدا وسياسة جديدة، وثقافة جديدة ايضا . هذه الاشتراكية تجهل التناقض بين العلم والدين ، ولسنا بحاجة الى سرد الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي تعرض على محاربة الفساد والظلم بجميع انواعه ، ثم لسنا بحاجة الى الاثبات بشواهد تبرهن على ان ديننا الحنيف هو اقل الاديان السماوية غيبية (1) ، كما كرم الاسلام ابن آدم واستقطبه في جميع نشاطاته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية ، وما قول الرسول محمد (صلم) « اعمل لدينك كأنك تعيش ابدا ، وامل لآخرك كأنك تموت غدا » الا مصداقا لما قدمنا.

فنحن الاشتراكيين نتكلم لغة شعبنا ، ونتعلم من خبرات شعبنا العظيم ، حتى نعلمه ونخدم مصالحه واهدائه ، اما اولئك المنحرفون الايديولوجيون ، فيبمدهم من قضية شعبهم قد داسوا المحتوى العلمي والقومي للاشتراكية ، وما ارادوا الا ان يكونوا اميين خياليين ، اما نحن فلا نرى أي تناقض بين الاممية والقومية : بل بالمعكس اذا تعمقنا قليلا وجدنا ان هناك رابطة تاليفية بين القيمتين ، وذلك ما ان تطبق النظرية الاشتراكية في اي بلد حتى تصبح قومية اي محلية ، كان على هؤلاء ان يقتصروا على حفظ نتف وتراتيل من اقوال ماركس وتروتسكي ورجيس دي بري وكاسترو... معتبرين اياها الاشتراكية ذاتها بل لا بد من وضعها في سياقها التاريخي ، وحيزها المكاني ، حتى يعلموا كم يكون الفرق صلبا بين النظرية والتطبيق العملي لها . ومما ينكر ان هؤلاء بعد اقامتهم في البلاد الاجنبية ، ورجوعهم الى ارض الوطن اخذوا يرددون ما ابتلوه طازجا في الخارج ونسوا او تناسوا، ان واجبهم هو دراسة الجديد ، وبمك القديم ، وخلق

الجديد ، انهم اصبحوا وكانهم عبارة عن «مونوغراف» ضاربين عرض الحائط ببدا علمي اساسي في العصر الذي ، وهو وحدة النظرية والعمل .

النتيجة من هذا الانحراف هي اخطاء كثيرة ارتكبت وترتكب ، وهي تنتشر كانتشار الامراض السارية ، ان هذا التكوين الفكري الغريب ، وهذا التهافت والتقليد الاعمى لكل ما هو غير تونسي قد اتاح لطبقة من الناس هي طبقة اولئك الذين يسمون انفسهم « بالتقدميين » ان تصرف بحرية كاملة الى اللعب بالافكار والمذاهب المستوردة . لعب المتعطلين ملقية نظرات علوية على الحياة والعالم ، الواقع ان العجالات التي تدور في رؤوس هذه الفئة من الناس ليس لها صلة بحياة الشعب ولا بالحياة عامة ، ان هذه الافكار المستوردة تشبه نباتات المناطق الاجنبية التي تستثبت بواسطة بيوت زجاجية في جو اصطناعي مكيف وليس صلة صلة بين هذا كله والارض التي هي عليها ، ليس صلة صلة بين هذه الافكار وبين الواقع الراسخ الذي تتحرك فوقه جماهير الكائنات الحية ، انهم يظنون انهم يناقشون نصير الجماهير ووظيفتها التي يجب ان تقوم بها سيما الى ما يرسمون لها من غايات واهداف سامية ، ان لعبيهم هذا خطر ، او يمكن ان يصبح خطرا على الناس وعليهم ، ان الذي يسمهم يتكلمون يظن ان جميع المشاكل قد حلت حلا موفقا وان جميع الطرق قد عثدت ولم يبق الا البداية في المسير ، مع انه لا شيء مهما في هذه الحياة يمكن ان يحل بسهولة بل كل مشكل هام يتطلب نفقات باهضة لعله او لمحاولة حله مع ما يحق به من جهود واخطار.

### الاصالة

اننا ونحن نتجه اتجاها اشتراكيا في تونس ، نؤمن بان التخطيط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، هو الشكل الافضل للعقلانية الاجتماعية ومثى آمتنا بذلك فرضنا ارادتنا على الحياة والواقع لنصوفهما من جديد حسب اهدافنا وامانياتنا ووصلنا بذلك الى مرحلة النضج التاريخية .

وهل ننسى صرخة المرحوم الطاهر الحداد الخاصة الذي قال فيها : « اذا اردنا ان ندخل البيت ندخل من بابيه ونصل الى غابيتنا بيقين صحيح فليس لنا الا طريق واحد الا وهو : الاعتماد على النفس ؟ »

(1) « ولقد آتينا داوود... والنا له الحديد ان اعمل سايفات وقد في السرد » (سورة 34-9\10)